بسم الله الرحمن الرحيم

كتابُ
(بدءِ الوحي على رسول اللَّه ﷺ)

بابُ (الأعمال بالنيّات)

١ ـ عَنْ أَمِيرِ المُؤمِنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أنه قال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ على المنبر يقول:

(إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).

[الحديث أطرافه في: ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣].

شرح الألفاظ

(**كتابُ بَدْءِ الوحي**): أي بابَ كيف كان ابتداءُ نزولِ الوحي على الرسول ﷺ؟ وكيف جاءه جبريلُ بالوحي من السماء؟

معنى الوحي: الإعلامُ والإخبارُ، قال في الصحاح: الوحيُ: الكلامُ الخفيُّ، ويطلق على القرآن (وحيٌ) لأنه موحًى ومنزلٌ من عند الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] سمَّى تعالى القرآن (رُوحاً) لأنه للقلوب بمنزلة الرُّوح للبدن، يُحْييها من ظلمةِ الجهل، وقد ربطَ الإمامُ البخاريُّ بين الباب، وبين قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] ليشير إلى أنَّ مصْدَرَ الوحي إلى جميع الأنبياء والمرسلين واحدٌ، هو ربُّ العزة والجلال، الذي أرسلَ أمينَ السماء (جبريل) عليه السلام إلى جميع رسله، بالوحي المنزل من عند الله تعالى، ويسمى جبريلُ (روحَ القُدُس) لقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ [النحل: ١٠٢].

(**على المنبر**) أي ذَكَر (عمر) وهو يخطب على منبر المسجد النبوي هذا الحديث الشريف، وسمعَهُ جمعٌ كبير من الصحابة، فالحديث بلَغَ درجةَ الشُهرة، بل عدَّه بعضهم من المتواتر، يعني (التواتر المعنوي) لا التواتر اللفظيَّ، الذي يكون بكثرة الطُّرق والرواة.

(**إنما الأعمالُ بالنّيات**) أصلُ إنَّما (إنَّ) التي هي للتأكيد، دخلت عليها (ما) لإفادة الحصر، أي لا يكون العملُ صحيحاً، ولا مقبولاً عند اللَّه، ولا يُثاب عليه، إلَّا إذا اقترن بالنيَّة الصادقة. مثالهُ: إذا لم يتناول إنسانٌ شيئاً من الطعام والشراب طيلةَ النهار، لا يُقال: إنه صائم، حتى يقصد بامتناعه مرضاةَ اللَّه، والنيَّةُ معناها: القصدُ، ومكانُها القلبُ، وجميعُ العبادات من (صلاةٍ، وصيام، وحجٍ، وجهادٍ، وزكاة) تحتاج إلى نيَّة سابقة.

(**فهجرتُه إلى اللَّه ورسوله**) أي من كانت هجرتُه طلباً لمرضاةِ اللَّهِ، كتَبَ اللَّهُ له أجر الهجرة كاملاً، لقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] شَرَط تعالى بأن تكون الهجرة في سبيل اللَّه، حتى ينال المؤمنُ أجره عند اللَّه تعالى.

(**ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها**) أي من أجل مكاسب دنيوية، كمن يهاجر من وطنه للتجارة، أو لكسب الرزق، فلا يُقال عنه: إنه مهاجرٌ، حتى يكون غرضُه من ترك الوطن، والهجرة من بلده، هو الحفاظُ على عقيدته، وإعزازُ الدِّين، تنفيذاً لأمر اللَّه عزَّ وجلَّ، الذي أمر المؤمنين المستضعفين بالهجرة من الوطن، قال تعالى ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

(**أو امرأةٍ ينكحها**) أي منْ كانت هجرتُه لأجل أن ينكح امرأةً يحبُّها، لا من أجل الدِّين، والرغبة في ثواب اللَّه.

(**فهجرتُه إلى ما هاجر إليه**) أي لا يكون له ثواب المهاجر في سبيل اللَّه، لأنه لم يقصد بهجرته، إلَّا مصلحةً خاصةً به، من غِنًى وثَرَاء، أو نكاحٍ وقضاء شهوة.

سببُ ورودِ الحديث الشريف

قصة مهاجر أم قيس: ذكر المحدِّثون عند هذا الحديث الشريف، أنَّ المسلمين لمَّا أُمروا بالهجرة من مكة إلى المدينة، هاجَرَ معهم رجلٌ من المسلمين، كان قد خطبَ امرأةً، يُقال لها: (أُمُّ قَيْس) وكانت قد اشترطت عليه أن يهاجر إلى المدينة، حتى ترضى بزواجها منه، فهاجر رغبةً في الزواج منها، ولم يكن غرضُه من الهجرة، إلَّا نكاح تلك المرأة!

قال ابن مسعود: فكنَّا نسمِّيه (مهاجرَ أمِّ قيس) واشتهر ذلك بين المسلمين، كما في الطبراني.

ما يستفاد من الحديث

أفاد هذا الحديثُ الشريف، أنَّ من كانت غايتُه من العمل مقصداً آخر، غير المقصد الديني، لم يحصل له الأجر والثوابُ، الذي يناله المؤمن المخلصُ في نيَّته، الذي يقصد بعمله وجه اللَّه، لا شيئاً من شهوات الحياة، ومنافعها الفانية.

وهذا الحديث الشريف أصلٌ من أصول الدين، إذْ عليه يُبنى قبولُ العمل، أو ردُّه، وهو ركنٌ هامٌّ من أهمِّ عناصر الإخلاص، حيث قال الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. فالعمل لا يكون مقبولاً عند اللَّه تعالى، إلَّا بشرطين: الإخلاص في النيَّة، وأن يكون موافقاً لهدي سيِّد المرسلين ﷺ.

باب (كيفية نزول الوحي)

٢ ـ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أَنَّ الحَارِثَ بنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلاً، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيُفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً).

[الحديث طرفه في: ٣٢١٥].

شرح الألفاظ

(**أمُّ المؤمنين**): تُدعى السيدة عائشة (أمَّ المؤمنين) لأنها زوجةُ الرسول ﷺ، وجميعُ أزواج النبي ﷺ (أمهات للمؤمنين)، لقوله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] أي هنَّ كالأمهات للمؤمنين، في وجوب تكريمهنَّ

واحترامهنَّ، وحرمة النكاح منهن، فالآية واردة على التشبيه والتمثيل، أي هنَّ كالأمهات للمؤمنين.

(**الحَارثُ بنُ هِشَام**) من قبيلة بني مخزوم، أسلم يوم فتح مكة، وكان من فضلاء الصحابة، أخوه أبو جهل اسمه (عَمْرو بنُ هشام) المخزومي، أسلم الحارث، وبقي أخوه الشقيق (أبو جهل) على كفره وضلاله، حتى سُمّي فرعون هذه الأمة.

(**كيفَ يأتيكَ الوحيُ؟**) أي كيف كان ينزل عليك جبريل بالوحي يا رسول الله؟

(**أحياناً يأتيني مثلَ صَلْصَلَةِ الجَرَس**) أي يأتيني جبريل عليه السلام وله صوتٌ يشبه صوت الجرس، حين يُدَقُّ، فأشعر بحضوره، ويكون له تأثير على قلبي شديد.

(**وهو أشدُّه عليَّ**) أي هذه الحالُ أشدُّ الأحوال على نفسي، لأنه كان يأتيه بصوتٍ شديد مفزع، والوحيُ له شدَّة وثِقلٌ على نفس الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

أي سننزل عليك قرآناً عظيماً جليلاً، له هيبةٌ وروعةٌ وجلال، لأنه كلام ربِّ العزة والجلال.

(**فيفصِمُ عنِّي**) أي ينجلي ما يغشاني من الكرب والشدة.

(**وقد وَعَيتُ عنه**) أي فهمتُ وحفظتُ ما ألقاه إليَّ، من كلام ربِّ العزة والجلال.

(**يتمثَّل لي المَلَكُ رجلاً**) أي وفي بعض الأحيان يأتيني (جبريلُ) بصورة إنسانٍ من البشر، وهو الغالبُ على نزول جبريل على الرسول ﷺ، ليأنسَ الرسولُ ﷺ برؤيته، ويطمئنَّ بمجالسته، فيسمع كلامَ الله دون فزع، كما في حديث عمر: (بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ، إذْ طَلَع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سَوَادِ الشَّعَر...) الحديث، وأخبر الرسولُ ﷺ أصحابَه، أنه كان (جبريل) جاءهم يعلِّمهم أمور دينهم.

قال ابن حجر: وتمثُّلُ المَلَكِ بصورة رجل، ليس معناه أنَّ ذاتَ المَلَك انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة، تأنيساً للرسول ﷺ.

(**يتفصَّدُ عَرَقاً**) أي يتصبَّبُ العَرَقُ منه، تخبر السيدة عائشة أنها كانت ترى الرسولَ ﷺ في أيام الشتاء الباردة، يتصبَّبُ العَرَقُ منه، من كثرة معاناة التعب والكرب، عند نزول الوحي عليه.

فإن قيل: لماذا لم يكن يأتيه جبريل بصورته المَلَكيَّة؟

فالجواب: أنَّ الطبيعة البشرية لا تَقْوى على رؤية المَلَكِ على صورته المَلَكية، وقد ثبت في الصحيح أن (جبريلَ) كان له ستمائة جناح، وأن الرسول ﷺ حين طلب رؤيته بصورته الملكية، فتح جناحين فقط، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، رآه ﷺ قَدَماه في الأرض، ورأسُه في السماء، فأُغمي على النبي ﷺ، فكيف لو رآه بستمائة جناح؟ لذلك كان يأتيه بصورة رجل من الناس، أو بصورة رجل من الصحابة، اسمه (دِحْية الكلبيُّ).

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أنَّ الوحيَ كان يأتي النبيَّ ﷺ على صفتين:

الأولى: أشدُّ من الأخرى، وهي أنه يأتيه وله صوتٌ شديد مفزع، ولذلك قال ﷺ: «**وهو أشدُّه عليَّ**».

والأخرى: أنه كان يأتيه بصورة رجلٍ من البشر، فيُلقي عليه الوحيَ، وكانت هذه أيسرَ.

الثاني: وفيه إثباتُ وجود الملائكة، ردًّا على من أنكرهم، من الملاحدة والفلاسفة.

الثالث: وفيه أنَّ الصحابة كانوا يسألون الرسول ﷺ، عن كثير من الأمور التي يجهلونها، فيجمعهم الرسولُ ﷺ ويعلِّمهم، وكانت طائفة تسمع، وأخرى تسمع وتبلِّغ، حتى أكمل اللَّه دينه بطريق الوحي.

الرابع: وفيه الدلالة على أنَّ المَلَكَ، له قدرة على التشكُّل، بما شاء من الصور. وانظر عمدة القاري للعيني ١/ ٤٦.

بابُ ذكرِ (أوَّل بدْء الوحي)

٣ ـ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّه عَنْها أَنَّها قَالَتْ: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ

فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا.

حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ!! قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّه أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بنَ نَوْفَل بن أَسَدِ بن عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ.

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّه عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ).

[الحديث أطرافه في: ٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢]

شرح الألفاظ

(**الرؤيا الصالحة**) المراد بها الرؤيا في المنام الصادقة يراها ﷺ، فتأتي جليَّةً واضحة، مثل انفلاق نور الصباح، وإنما ابتدئ الوحيُ بالرؤيا الصادقة، التي ليست من

(اختلاط الأحلام)، لئلا يفاجئه الملَكُ بالنبوَّة، فلا تحتمله قوَّتُه البشرية، وليكون تمهيداً وتوطئةً لنزول المَلَك عليه في اليقظة.

(حُبِّب إليه الخلاءُ) أي حُبِّبت إليه الخلوةُ والعُزْلةُ، فكان يذهب لغار حراء، يتعبَّد ربَّه فيه أياماً عديدة، والسرُّ في هذه الخلوة: هو فراغُ القلب عن التعلُّقِ بغير اللَّه عزَّ وجلَّ، والبُعْدِ عن شواغل الدنيا، كما أنَّ الاعتكافَ في المسجد مشروعٌ، لصفاء النفس، والتفرُّغِ لعبادة المولى جلَّ وعلا.

(فيتحنَّثُ فيه) أي يتعبَّد ربَّه في الغار، وقد فسَّره في الحديث بالتعبّد، فقال: (وهو التعبُّد) وهو ما يُعرف في مصطلح الحديث: باسم (المُدْرج) في الحديث، وهو من تفسير الزُّهري.

قال في نظْمِ البيقونية:

والـمـدرجـاتُ فـي الـحـديـث مـا أتَـتْ مـن بـعـض ألـفـاظ الـرواة اتَّـصَـلَـتْ

(ينزعُ إلى أهله) أي قبل أن يرجع إلى بيته، عند زوجهِ السيّدة (خديجة بنتِ خُويلد) رضي اللَّه عنها.

(ويتزوَّدُ لذلك) أي يأخذ معه الزاد من الطعام والشراب، وكانت خلوتُه عليه السلام في شهر رمضان، ولذلك كان ابتداء نزول القرآن عليه في رمضان، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي ابتدأ نزوله فيه، لأن نزوله دام ثلاثاً وعشرين سنة.

(حتى جاءه الحقُّ) أي الأمر الحقّ وهو الوحيُ الذي جاءَه به جبريل عليه السلام، وتنزَّلتْ معه آياتُ الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

(ما أنا بقارئ) أي لا أُحسنُ القراءةَ، لأنه ﷺ كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، زيدت فيها الباءُ لتأكيد النفي، و(ما) نافية، ولو كانت استفهامية، لم يصلح دخول الباء، لأن الاستفهامية لا يدخلها الباء، تقول: ما أنا قارئ؟ أي ماذا أقرأ؟

(فأخذني فغطَّني) أي ضمَّني إلى صدره ضمَّةً شديدة، حتى بلغ مني الجَهْدُ مبلغَه، وإنما فعل به جبريلُ ذلك ثلاث مرات، ليقوى قلبُ النبي ﷺ على تقبُّل الوحي، والاستعداد لهذا الخطب الجليل، بما يُلقى إليه من نور المعرفة، والقرآن.

(ثم أرْسلني) أي أطلقني، ثم قال لي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] أي اقرأ يا محمد مستعيناً باسم ربك، لا تقرؤه بمعرفتك ولا بقوَّتك، ولكنْ بحول ربك وإعانته، فهو يعلّمك ولو كنتَ أميًّا، لا تعرف القراءةَ والكتابة، وهذه الآيات الخمسُ

المباركات، هي أول القرآن نزولاً على خاتم الأنبياء ﷺ، وهي أولُ اتصالِ السماء بالأرض، وأولُ نور الوحي الإلهي للرسول ﷺ.

(**يَرْجُف فؤادُه**) أي يخفقُ قلبُه ويضطربُ، لِمَا حصل له مع المَلَك (جبريل)، ومن الفَزَع الذي أصابَهُ من هوْلِ الموقف وشدَّته.

(**فقال زَمِّلوني زَمِّلوني**) أي لفُّوني بالغطاء واللِّحاف، فلفُّوه حتى ذهب عنه الخوفُ، ثم أخبر السيِّدَةَ خديجةَ بما حصل له في غار حراء، وقال لها: «**لقد خشيتُ على نفسي، من شدة الرعب والفزع**»، وهذا يحدث للطبيعة الإنسانية، قبل أن يتحقَّق رسولُ اللَّه بأنه نبيٌّ، يُوحَى إليه من ربِّ العزَّة والجلال.!.

(**واللَّه ما يُخزيكَ اللَّهُ أبداً**) أي قالت له خديجة: واللَّه لن يُهينك اللَّه، ولن يُذلّك، لِمَا عرفتْه عنه ﷺ من مكارم الأخلاق، وجميل الإحسان للعباد، وكأنها تقول: لا تخشى على نفسك، فإنك محوط بلطف اللَّه وعنايته.

(**تحمل الكَلَّ**) أي تحملُ الضعيفَ، المحتاجَ إلى العون والمساعدة.

(**وتَكْسِبُ المعدومَ**) أي تُعينُ الفقيرَ المعْدَمَ، فتنقذه من الفقر والهَلَكة، بما تمنحه من المال، قال أعرابيٌّ يمدح إنساناً: كان أَكْسَبَهم لمعْدُوم، وأعْطَاهم لِمَحْرُوم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

(**وتَقْري الضَّيفَ**) أي تُكرم الضيف بأنواع المحاسن والكرامات.

(**وتُعينُ على نَوَائب الحقّ**) أي تُعين من وقعت عليه مصيبة، أو ابتُلي بكارثة من الكوارث، جمع «نائبة» وهي المصيبة، واللفظةُ جامعة لفنون الخير.

استدلالٌ بديعٌ رائع

استدلتْ خديجةُ رضي اللَّه عنها، على أنَّ من كانت فيه هذه الخصال الفريدة، والمكارم الحميدة، لا يمكن أن يخذله اللَّه أبداً، أو يسلِّط عليه وساوسَ الشيطان، بل لا بدَّ أن يكون ما جاءه، كرامةً له من اللَّه تعالى، ويا لها من امرأةٍ عاقلة رشيدة! قوَّتْ نفسَه، وشدَّت عزيمته للمضيِّ في تحمُّل ما لاقاه من شدة، وأقسمتْ له مؤكدةً القَسَمَ بقولها: «كلَّا واللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبداً» ثم ذهبت به إلى ابنِ عمِّها «ورقةَ بنِ نَوْفل»!!

(**هذا النَّاموسُ**) المراد بالنَّاموس: (جبريل) عليه السلام، أي هذا هو المَلَكُ (جبريلُ) الذي ينزل بالوحي على رُسُل اللَّه، وهو الأمينُ على الوحي الإلٰهي، أنزله اللَّه عليك كما أنزله على «موسى بنِ عمران» عليه السلام.

(**ليتني فيه جَذَعاً**) أي يا ليتني أكون شابًّا حين يُخرجك قومُك، لأكون لك مناصراً، على تبليغ الدعوة إلى اللَّه، وأصلُ الجَذَع: الصغيرُ من الغَنَم.

(**أَوَ مُخرِجيَّ هم؟**) استفهام فيه معنى الاستبعاد!؟، استبعد النبيُّ ﷺ أن يخرجه قومه من مكة، لسبب موجب، لأنه كان محبوباً عندهم، ومشهوراً بالصِّدق والأمانة، فكيف يُخرجونه على ما هو عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات!؟

(**نصراً مؤزّراً**) أي لئن عشتُ إلى زمانِ بعثتك، وإكرام اللَّهِ لك بالنبوَّة، لأنصرنَّك نصراً قوياً، مأخوذ من الأَزْر بمعنى القوة، قال تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٣١].

(**لم يَنْشَب**) أي لم يلبث ورقةُ زمناً طويلاً، حتى توفاه اللَّه تعالى.

(**وفَتَرَ الوحيُ**) أي أبطأ الوحيُ وتأخَّر نزولهُ على رسول اللَّه ﷺ مدَّةً من الزمان.

ما يستفاد من الحديث

في هذا الحديث الشريف فوائد عديدة نذكر بعْضَها:

الأول: فيه أنَّ الرؤيا التي يراها النبيُّ في منامه، من جملة (أنواع الوحي).

الثاني: وفيه مشروعيةُ اتخاذ الزَّاد، للبعيد عن أهله، فقد اتَّخذه سيِّدُ المتوكِّلين ﷺ.

الثالث: وفيه أنَّ أولَ ما نزل من القرآن الآياتُ الخمس ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ . . .﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الرابع: وفيه الحثُّ على التعليم، وتكراره له ثلاثاً، كما فعله جبريل مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

الخامس: وفيه افتتاحُ القراءة وسائر الأعمال ببسم اللَّه، لقوله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

السادس: وفيه استحبابُ تأنيس من نَزَل به أمرٌ مُفْزِع، بتيسيره عليه، وتهوينه لديه.

السابع: وفيه أنَّ مكارم الأخلاق وأعمال الخير، سببٌ للسَّلامة من مصارع الشرّ والسوء.

الثامن: وفيه جوازُ مدح الإنسان في وجهه، لتطمين قلبه، وتهدئة رَوْعه.

التاسع: وفيه أنَّ من نَزَل به أمرٌ شَغَل بالَه، يُستحبُّ له أن يُطْلِع عليه، من يثق بنصحه ورأيه.

العاشر: وفي الحديث أبلغُ دليلٍ على كمال خديجة رضي اللَّه عنها، ورَجَاحة

عقلها، وعظَم فقهها في الدين، فقد طَمْأنتْ قلبَ النبي ﷺ، بحفظ اللَّه له، من جميع المخاوف والشرور، بما أكرمه اللَّه به من الشمائلِ الفريدة، والمكارم الحميدة.

تنبيه لطيف

لم ير النبيُّ ﷺ جبريلَ عليه السلام في صورته المَلَكِيَّة، التي خلقه اللَّه عليها، إلَّا في موطنين:

الأول: في فترة الوحي كما في حديث جابر عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: (**بينا أنا أمشي، إذ سمعتُ صوتاً من السَّماءِ، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحِرَاءَ، جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فَرعبْتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زَمِّلوني**...) الحديث رواه البخاري.

الثاني: حين عُرِجَ به ﷺ إلى السمٰوات العلى، رأى جبريلَ عليه السلام في صورته الملكيَّة، له (ستمائة جناح)، وذلك عند سدرة المنتهى، لقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤].

(**نزلةً أخرى**) أي مرَّة أخرى، قالت عائشة: (رأى رسولُ اللَّه ﷺ جبريلَ عليه السلام مرتين) أخرجه البخاري.

وما عدا ذلك فقد كان جبريل يأتيه بصورة رجل من البشر، أو أعرابيٍّ من الأعراب، أو بصورة (دِحْيَةَ الكلبيِّ) أحدِ الصحابة الكرام.

بابُ (فَتْرَةِ الوحي)

٤ ـ عن جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّه الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، أنه قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: (بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي!! فَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ).

[الحديث أطرافه في: ٣٢٣٨، ٤٩٢٢، ٤٩٢٣، ٤٩٢٤، ٤٩٢٥، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤، ٦٢١٤]

شرح الألفاظ

(**المَلَكُ الذي جاءني**) يريد به جبريلَ عليه السلام، لأنه هو الذي كان يتنزَّل بالوحي على رسول اللَّه ﷺ، ويؤكده قولُه ﷺ (جاءني بحراءَ) ولم يكن الذي جاءه في غار حراء، إلَّا «جبريلُ» عليه السلام.

(**فرُعِبْتُ منه**) أي فزعتُ، ودخلَ إلى قلبي الخوفُ منه، لأنه رآه على كرسيّ، قد ملأَ ما بين السماء والأرض.

(**زَمِّلوني**) أي لفُّوني وغطُّوني بلحاف، وفي رواية (دثِّروني) وهي موافقة لنزول سورة المدثِّر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] أي حذِّرْ من العذاب من لم يؤمن بك من قومك.

(**فحمِيَ الوحيُ**) أي تَتابعَ الوحيُ واستمرَّ نزولُه، بعد انقطاعه فترةً من الزمن.

توضيح وبيان

هذا الحديث الذي رواه جابر، يدلُّ دلالة واضحة، على أن سورة المدَّثر نزلت بعد سورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لقوله ﷺ: «**فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراءَ**» ومعلوم عند جمهور أهل العلم، أنَّ جبريل هو الذي نزل على رسول اللَّه ﷺ، حينما كان في غار حراء، ونزل عليه بخمس آيات من سورة العلق ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. فمن زعم أنَّ سورة «المدثِّر» نزلت قبل سورة «اقرأ» فقد أخطأ، وحجتُه ما جاء في الرواية (**فرجعتُ فقلتُ: زَمِّلوني**) فنزلتْ سورة المدَّثِّر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فإنَّ هذه السورة، نزلت بعد مدةٍ من انقطاع الوحي، فتدبر الأمرَ واللَّهُ يرعاكَ.

سبب فتور الوحي

أمَّا سببُ فتور الوحي زمناً، فهو ما أصاب النبيَّ ﷺ من شدة الرَّوْع، أولَ نزولِ المَلَك «جبريل»، فتأخَّر الوحيُ عليه، ليذهب عنه هذا الخوفُ والفزعُ، وليحصل له التشوُّق إلى عودة نزول «جبريل» عليه بعد أن سكن روعُه.

ما يُستفاد من الحديث

أولاً: فيه انقطاعُ الوحي عن الرسول ﷺ مدة من الزمن، لقول الزاوي: وهو يحدّث عن فترة الوحي.

ثانياً: وفيه تقويةُ قلب النبي ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]

ثالثاً: وفيه أنَّ رؤية المَلَك بصورته الملكيَّة، التي خلقه اللَّه عليها، لا قدرة للإنسان على رؤيتها، ولذلك فزع النبيُّ ﷺ منها.

رابعاً: وفيه أنَّ نزول سورة المدثر، كان بعد نزول أول الآيات من سورة العلق.

بابُ (معالجة النبيّ ﷺ من شدة التنزيل)

٥ ـ عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُحَرِّكُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. قَالَ: جَمْعُهُ لَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قَالَ: فاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ، إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ).

[الحديث أطرافه في: ٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩، ٥٠٤٤، ٧٥٢٤]

شرح الألفاظ

(**يُعالِجُ شِدَّةً**) المعالجة: محاولةُ الشيء بمشقَّة، أي يناله ﷺ مشقَّةٌ من ترديد القرآن مع جبريل، حين يقرؤه عليه، وذلك لأنه يريد الاستماع لجبريل، وفي الوقت نفسه يريد أن يتلوه معه، لئلّا يضيع عليه شيءٌ من القرآن، فأنزل اللَّهُ

تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧].

(**يُحرِّكُ شفتيه**) أي كان ﷺ حين يقرأ القرآن، يحرّك شفتيه، فيحصل له شدَّةٌ، لأنه يريد أن يقرأ، ويستمع لقراءة جبريل.

(**فأنا أحرِّكُهما**) جملة اعتراضية من كلام ابن عباس، وفائدتُها: توضيحُ كيفية تحريكِ النبيِّ ﷺ شفتيه، عند تلاوة القرآن، زيادةً في الوصف والبيان.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لا تحرّكْ يا أيها الرسول لسانك بتلاوة القرآن، عندما يقرؤه عليك جبريل، لتتعجَّل بحفظه، بل استمع لقراءته، وأنصتْ.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي علينا أن نجمعه في صدرك، فتحفظه وتقرأه متى شئت، فلا يضيع عنك منه شيء، وهذه ضمانةٌ من اللَّه عزَّ وجل لرسوله ﷺ، بحفظه القرآنَ كاملاً في صدره الشريف.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فإذا أنزلناه عليك، وقرأه عليك جبريل، فاستمع لقراءته، حتى ينتهي من القراءة، نسبَ القراءةَ إليه تعالى (قَرَأْنَاهُ) أي قرأه جبريل، لأن جبريلَ مبلِّغٌ عن اللَّه عزَّ وجلَّ وحْيَه، وكتابَه، فكأنَّ قراءة (جبريلَ) قراءةٌ من اللَّهِ لرسوله، لأنها بأمره سبحانه، فكأنه هو القارئ على الرسول ﷺ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي علينا أن نوضّح معانيه لك، إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

قال الإمامُ العينيُّ:

كان رسولُ اللَّه ﷺ إذا تُلي عليه الوحيُ، نَازَع جبريلَ عليه السلام القراءةَ، ولم يصبر إلى أن يُتِمَّها، مسارعةً إلى الحفظ، وخوفاً من أن يتفلَّت منه، فأُمِرَ ﷺ أن يستمع له، ملقياً إليه بقلبه وسمعه، حتى ينتهي جبريل من القراءة، وضمنَ اللَّهُ له، أن يجعله محفوظاً في صدره. اهـ. عمدة القارئ للعيني.

وقال الحافظ ابن كثير: أمره اللَّه عزَّ وجل، إذا جاءه المَلَكُ بالوحي، أن يستمع له، وتكفَّل له أن يجمعه في صدره، وأن يُبَيِّنه له، ويفسِّره ويوضِّحه. اهـ. تفسير ابن كثير.

تنبيه لطيف

أقول: هذه الآية تشبه قول اللَّهِ جلَّ ذكره: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه حرصُ الرسولِ ﷺ الشديدُ على حفظ القرآن، حتى لا يضيع عليه شيء منه.

الثاني: وفيه ضمانُ اللَّه عزَّ وجل له بحفظه، وفَهْمِ ما أشكل عليه من معانيه.

الثالث: وفيه فضلُ اللَّه على عباده المؤمنين، بتيسير حفظ القرآن ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

الرابع: وفيه توضيح الأمور الشرعية، باستعمال أدوات التوضيح، كقول ابن عباس: فأنا أحرِّكهما لكم، كما كان رسول اللَّه ﷺ يحرِّكهما.

بابُ (مدارسة جبريل للرسول ﷺ في رمضان)

٦ ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُما أنه قالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّه ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ).

[الحديث أطرافه في: ١٩٠٢، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤، ٤٩٩٧]

شرح الألفاظ

(**أجودُ النَّاس**) أي أكثر الناس بذلاً وعطاءً، من الجود بمعنى البذل والعطاء، وهو أفعلُ تفضيل، ومعناه أسخى الخلق، كَرَماً وجوداً.

(**فيدارسه القرآن**) أي يقرأ عليه القرآن؛ في كل ليلةٍ من ليالي شهر رمضان، ويستمع جبريلُ إلى قراءة النبي عليه السلام، والمدارسةُ: مُفَاعلة تكون من طرفين، فقد كان جبريلُ يقرأُ، ورسولُ اللَّه ﷺ يستمعُ، ثم يقرأ الرسولُ ﷺ وجبريلُ يسمع لقراءته، وهذه هي (الطريقةُ المُثْلى) لحفظ القرآن، أن يتناوب القارئُ والمستمع التلاوةَ.

ولفظُ (المدارسةِ) يدلُّ على المشاركة من الطَّرَفين، فإنه أجمعُ لتثبيت الحفظ في القلب.

(**أَجْوَدُ من الرِّيحِ المُرْسَلة**) أي كان الرسول عليه الصلاة والسلام، أجودَ بالخير والعطاء، من الريح المرسلة بالرحمة إلى العباد، ومعنى المرسلة أي المُطْلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود، أسرعُ من الريح، والرياح تأتي بالخير والمطر ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦] أي من المطر الذي به حياة البشر.

تنبيه لطيف هام

كان جبريلُ عليه السلام يتعاهدُ رسولَ اللَّه في كل سنة، فيتذاكر معه القرآنَ في شهر رمضان، وينزل عليه من رمضانَ إلى رمضانَ، خصِّيصاً لمدارسة القرآن العظيم، فلمَّا كان العامُ الذي قُبض فيه رسولُ اللَّه ﷺ، نزلَ عليه جبريلُ مرتين: مرَّةً في أول الشهر، ومرَّةً ثانية في آخر الشهر من رمضان، فقال الرسولُ ﷺ لابنته «فاطمة الزهراء»: (**إنَّ جبريلَ كان ينزل عليَّ في رمضان مرةً واحدة، وقد نزلَ عليَّ في هذا العام مرتين، وما أُراني إلَّا قد اقترب أجلي**) أي وفاتي، وكان الأمر كما أخبر ﷺ، فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى، بعد عودته من (حجَّة الوداع)، ولم يدرك عليه الصلاة والسلام رمضانَ آخر بعد ذلك العام.

ما يُستفاد من الحديث

في الحديث الشريف فوائد عديدة، نذكر هنا بعضَها:

الأول: وفيه الحثُّ على الجودِ والسَّخاء في كل وقت من الأوقات، لا سيما في شهر رمضان المبارك.

الثاني: وفيه زيارةُ الصالحين، وأهلِ الخير من المؤمنين، وتكرارُ الزيارة لهم، إذا كان المَزُور لا يَكْره ذلك.

الثالث: وفيه استحبابُ الإكثار من قراءة القرآن في رمضان، لأن الأجر يتضاعف فيه، إلى سبعين مرة، كما ورد به الحديث الصحيح.

الرابع: وفيه أنَّ تلاوةَ القرآن في رمضان، أفضلُ من سائر الأذكار، إذ لو كان مطلقُ الذِّكرِ العامِّ مثلَه، لفعَلَه جبريلُ مع الرسول ﷺ.

الخامس: وفيه استحبابُ مدارسة القرآن في رمضان، وسائر العلوم الشرعية، لأنه شهر العلم والتعليم، وشهرُ التفقهِ في الدين.

السادس: وفي الحديث إشارة إلى فضل اللَّه على عباده، بإنزال القرآن العظيم، في هذا الشهر المبارك، ولذلك فَرَضَ اللَّه صيامه على المؤمنين، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ . . .﴾ [البقرة: ١٨٥] ولم يفرض تعالى الصيامَ في غيره من أشهر العام، لعظمة هذا الشهر عند اللَّه تعالى، لنزول كتابه المبين فيه.

تنبيه هام

قال الحافظ ابن حجر: كان ابتداءُ نزول القرآن الكريم في شهر رمضان، ولم ينزل كلُّه في رمضان، بل نزل في فترة طويلة، هي مدة / ٢٣/ ثلاث وعشرين سنة، مدة (البعثة النبوية) وقد صحَّ عن ابن عباس قولُه: (نَزَلَ القرآنُ الكريم جملةً واحدة إلى السماء الدنيا، في ليلةِ القدر، ثمَّ نزل مفرَّقاً إلى الأرض في ثلاث وعشرين سنة). اهـ فتح الباري.

فعلى هذا يكون للقرآن نزولان:

١ ـ نزولٌ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملةً واحدة.

٢ ـ ونزولٌ إلى الأرض منجَّماً أي مفرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة.

باب (كتابِ الرَّسُولِ ﷺ إلى هِرَقلَ مَلِكِ الرُّوم)

٧ ـ عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُما: (أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّاراً بِالشَّامِ، فِي المُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَباً بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عَنْهُ.

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ، بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قلت: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا؟

قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا، وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ:

سَأَلْتُكَ: عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.!

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.

قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيْمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلوب.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، ولَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ (دِحْيَةُ) إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: («بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ»، وَ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ!! فَما زِلْتُ مُوقِناً أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّه عَلَيَّ الإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ، صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ، أُسْقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْماً خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ، مَلِكَ الخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا اليَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ،

وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ اليَهُودِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي العِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ.

فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ.

وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الْإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ) انتهى حديث البخاري.

[الحديث أطرافه في: ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١]

شرح الألفاظ

(**هِرَقْلُ**) هرقلُ هو ملِكُ الروم، كانت بلادُ الشام تحت مملكته، وعاصمتُه كانت في مدينة (حمصَ) من بلاد الشام، اسمُه (هِرَقْل) ولقبُه (قَيْصر) كما يُلقَّب ملِكُ الفرسِ «كسرى» الذي كان يحكم بلاد العراق.

(**في رَكْب**) أي في جملة جماعةٍ من التجار كانوا في بلاد الشام، يرأسهم (**أبو سفيانَ بنِ حرب**) وكان أبو سفيان في ذلك الوقت مشركاً، والركبُ الجماعةُ جمعُ راكب، وهم أصحاب الإبل، العشرةُ فما فوقها، وكانوا في ذلك الحين ثلاثين رجلاً.

(**في المدة التي مادّ فيها**) أي في مدة (**صلح الحديبية**) الذي كان بين رسول الله ﷺ، وبين أبي سفيان والمشركين، وكانت في السنة السادسة، وكانت

مدَّتُها عشرَ سنين، ولكنهم نقضوا العهد، فغزاهم ﷺ سنة ثمانٍ من الهجرة، وفُتِح مكة ودخل الناسُ في دين اللَّهِ أفواجاً.!

(وهُمْ بإيلياء) إيلياء: اسم لمدينة (بيت المقدس) التي فيها المسجدُ الأقصى، سمي «إيلياءَ» ومعناها في العبرية بيت اللَّه المقدَّس، قال الفرزدق:

وَبَيْتَانِ بَيْتُ اللَّهِ نَحْنُ وُلَاتُهُ وَقَصْرٌ بِأَعْلَى «إِيلِيَاءَ» مُشَرَّفُ

وكان هرقلُ لمَّا صرف اللَّه عنه شرَّ «كسرى» مشىٰ إلى بيت المقدس، شكراً للَّهِ على ذلك.

(وحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّوم) أي دعاهم هرقلُ إلى مجلسه في بلدة حمص، وحوله كبراء الرجال من الروم، الوزراءُ، والبطارقةُ، والقُسُسُ، والرهبانُ.

(ودعا ترجمانه) أي الشخص الذي يترجم له الكلامَ، لأنه ما كان يعرف اللُّغةَ العربية.

(أيُّكُمْ أقْرَبُ نَسَباً) أي أيكم له قرابةٌ متينة، بهذا الذي يزعم أنه رسولُ اللَّه؟

سألهم هرقل عن ذلك، لأن القريبَ يعرف من أمر الشخص أكثر مما يعرفه البعيد.

(قال أبو سفيان: قلت: أنا) أي أنا أقربُهم منه نسباً، لأن أبا سفيان من بني عبد مناف، وهو يجتمع مع رسول اللَّه في النسب، لأن جدَّ النبيِّ ﷺ هو (عبد المطلِّب بن هاشم بن عبد مناف) وأبو سفيان من بني عبد مناف.

(أدْنُوه مني) أي قرِّبوا أبا سفيان مني، واجعلوا من معه خلف ظهره، وكان ذلك دهاءً من هرقل، الذي اشتهر بالدهاء، ليعرف صدق أبي سفيان في حديثه، لأنه لو كذب فيمكن بإشارة من أصحابه، أن يعرف كَذِبَه، ولو بإشارة بالعين.

(فإنْ كَذَبني فكَذِّبُوه) أي قال هرقل: سأسأل هذا الذي أمامي أسئلةً عديدة، فإن كذَبَ عليَّ، وقال خلافَ الواقع، فأخبروني ولو بالإشارة.

(أنْ يأثِرُوا عليَّ كذِباً لكذَبْتُ) أي لولا أن ينقلوا عليَّ الكذبَ، لكذبتُ على محمد، لكنه خشيَ أن يفتضح أمامَ مَلِكِ الروم، فتمسَّك بالصدق خوفاً من رفقائه.

(لتشجَّمتُ لقاءه) أي لتكلفتُ المشقَّةَ في سبيل لقائه، وسافرت إليه.

وهنا سأل مَلِكُ الروم أبا سفيان أحدَ عشر سؤالاً، لم يكذبْ في واحدة منها، إلَّا في مسألةٍ واحدة، أوردها بالتلميح، لا بالتصريح، وهي قوله حين سأله هرقل: هل يَغْدِر؟ قلت: لا، ولكنْ بيننا وبينه الآن صلحٌ وعهد، لا ندري ما سيفعل بنا في

المستقبل، قال أبو سفيان: ولم يمكنّي أن أُدخل كلمة غير هذه الكلمة.

يريد بقوله ذلك: أنه يمكن أن يغدرَ بنا في هدنته هذه.!

وقفة عند الأسئلة وأجوبتها الدقيقة

أما الأسئلة التي سألها (هرقل) لأبي سفيان، فهي تدلُّ على إدراك عميق، وفهم ثاقب، ولْنُصْغ إليها وإلى أجوبتها:

١ ـ قال له: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، أي هو من أشرافنا.

٢ ـ قال: هل قال هذا القولَ منكم أحد قبله؟ ـ يريد ادِّعاء النبوة ـ قلتُ: لا.

٣ ـ قال: فهل كان من آبائه مَلِكٌ؟ قلتُ: لا.

٤ ـ قال: هل أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلتُ: بل ضعفاؤهم.

٥ ـ قال: هل يزيدون أم ينقصون؟ قلتُ: بل يزيدون.

٦ ـ قال: هل يرتدُّ أحد عن دينه سخطةً، بعد أن يدخل فيه؟ قلتُ: لا. (سخطة) أي كراهيةً وبغضاً لهذا الدين.

٧ ـ قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ ـ أي قبل ادعاء النبوة ـ قلت: لا.

٨ ـ قال: فهل يَغْدِر؟ ـ أي إذا كان بينكم وبينه عهد هل يغدر في عهده؟ قلت: لا، ونحنُ منه في مُدَّة ـ أي هُدنة ـ لا ندري ما هو فاعلٌ بها؟ **قال أبو سفيان**: ولم يمكنّي كلمةً أُدْخِلها في كلامي، غيرَ هذه الكلمة ـ هذه هي الدَّسيسةُ التي دسَّها في جوابه لهرقل ـ يريد نحن الآن معه في صلحٍ، قد يكون منه غدر فيه!!

٩ ـ قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.!

١٠ ـ قال: فكيف كان قتالكم له؟ أي هل انتصر؟ أم انتصرتم عليه؟ قلت: الحربُ بيننا وبينه سِجَالٌ ـ أي مرَّةً نغلبُه ومرةً يغلبنا ـ ووضَّح معناها بقوله: يَنالُ منَّا وننالُ منه، شبَّه المحاربين بالذين يستقون الماء، يستقي هذا دلواً، وهذا دلواً، مشيراً إلى ما وقع بين المسلمين والمشركين في غزوة بدر، ثم في غزوة أحد.

١١ ـ قال: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا اللَّهَ وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم من الأوثان والأصنام، ويأمرنا بالصلاة، والصِّدق، والعفاف، والصِّلة ـ يعني صلةَ الأرحام!!

هذه هي الأسئلة التي سألها مَلِكُ الروم لأبي سفيان.

أجوبة هرقل ملك الروم

ولْنستمع الآن إلى الأجوبة عليها من (هرقل) عظيم ملوك الروم.

١ ـ **قال لترجمانه**: قل له: سألتُك: عن نَسَبه، فذكرتَ أنه ذُو نَسَب، ـ أي هو من أشراف قريش ـ وكذلك الرسلُ تُبعثُ في نَسَبِ قومها.

٢ ـ وسألتُك: هلْ قالَ هذا القولَ أحدٌ قبله؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبلَه، لقلتُ: رجلٌ يتأسَّى ـ أي يقتدي ـ بقولٍ قيل قبلَه ـ أي يحبُّ التسلُّط والزعامة عليكم ـ!!

٣ ـ وسألتُك: هل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كان من آبائه أحدٌ من الملوك، لقلتُ: رجلٌ يطلبُ مُلْك أبيه!!

٤ ـ وسألتُك: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ ـ أي قبل أن يزعم النبوَّة ـ فذكرتَ أن لا، فعلمتُ أنه لم يكن ليَدَعَ الكذبَ على النَّاس، ثم يكذب على اللَّه!! أي من المستحيل أن يترك أحدٌ الكذبَ على الناس، ثم يكذبَ على اللَّه، أعظمَ أنواع الكذب، فيدَّعي أنه رسولُ اللَّه!!

٥ ـ وسألتُكَ: هل أشرافُ الناس اتَّبعوه، أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أنَّ ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أتباعُ الرسل!!

٦ ـ وسألتُك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتمَّ!!

٧ ـ وسألتُك: أيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الإيمانُ حين تُخالطُ بشَاشَتُه القلوبَ. يريد أن الإيمان حين يتذوق الإنسانُ حلاوتَه، لا يمكن أن يخرج منه، مهما كانت الأسبابُ والمغرياتُ.

٨ ـ وسألتُك: هل يغدر؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الرسلُ لا تغدر!!

٩ ـ وسألتُك: بما يأمركم؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا اللَّهَ وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصِّدق، والعفاف!! فإن كان ما تقول حقًّا، فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، وقد كنتُ أعلمُ أنه خارج، ولم أكنْ أظنُّ أنه منكم؟

ثم قال له: فلو أني أعلمُ أنِّي أَخْلُصُ إليه، لتجشَّمتُ ـ أي تكلَّفتُ ـ لقاءَه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه!!

ما أعظم هذا الفهمَ؟ وما أروع هذا الاستنتاج؟!

نصّ كتاب رسول اللَّه ﷺ إلى هرقل ملك الروم

ثم دعا هرقلُ بكتاب رسول اللَّه ﷺ، فقرأه فإذا فيه:

من (**محمد عبدِ اللَّه ورسولِهِ**) إلى (**هرقل**) عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبع الهدىٰ.

أمَّا بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين، فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثم الأريسيِّين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] **قَالَ أَبُو سُفْيَانَ**: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ!! فما زلتُ موقناً أنه سيظهر حتى أدخل اللَّه عليَّ الإسلام، ثم أذن هرقل لعظماء الروم، فقال لهم: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرشد أن يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الْإِيْمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ ورَضُوا عَنْهُ، فكان ذلك آخرَ شأنِ هِرَقْلَ فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر أمر هرقل.

شرح الألفاظ

(**إثم الأريسيين**) أي إن أعرضت عن الإسلام، فعليك ذنوبُ الفلاحين والزرَّاعين، لأنَّ الأتباعَ يسيرون على دين ملوكهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

(**كَثُر عنده الصَّخَبُ**) أي كثر الحديثُ واللَّغَطُ، وارتفعت الأصوات بالمخاصمة.

(**أمِرَ أمْرُ ابنِ أبي كبشة**) أي عَظُمَ شأنُ محمد، وإنما نسبوه إلى (أبي كَبْشَة) لأنه أبوه من الرضاعة، ومرادهُم انتقاصُ قدره ومقامه ﷺ.

(**ليَخَافه مَلِكُ بني الأصفر**) أي إن محمداً ليخافه ملكُ الروم وعظيمُها.

(**فما زلتُ موقناً**) أي ما زلتُ على يقينٍ بظهور دين الإسلام، حتى شرح اللَّه صدري للإسلام، فأسلمتُ، رضي اللَّه عنه وأرضاه.

ما يستفاد من الحديث الشريف

١ ـ فيه ملاطفةُ المخاطَبِ، بكلام يشير إلى تعظيمه، ولو كان غير مسلم كما في قوله: (إلى عظيم الروم).

٢ ـ وفيه إلانةُ القولِ لمن يُدعى إلى الإسلام كما قال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]

٣ ـ وفيه أنه لا يُبدأ الكافرُ بالسلام، لحديث: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام**» وإنما يُعَمَّم التحيَّةَ، كقوله: (سلامٌ على من اتَّبع الهدى) كما فعل ﷺ مع هرقل.

٤ ـ وفيه النهيُ عن المسافرة بالقرآن إلى أرض العدوّ، وذلك في المصحف الكامل، دون الآية والآيتين فقد كتب الرسول ﷺ إلى هرقل ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٥ ـ وفيه دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم، كما فعل ﷺ في دعوة الملوك والعظماء، في الكتب التي أرسلها لهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

٦ ـ وفيه جواز مسّ المحدث والكافر كتاباً فيه آيات قرآنية، كالكتب الشرعية، والفقه، وكتب التفسير، إذا كان فيها آياتٌ من القرآن، وحرمةُ مسّ المصحف لغير الطاهر.

٧ ـ وفيه استحباب البلاغة، والإيجاز في الكلام، وتحرّي الألفاظ الجزْلة في المكاتبة، فإنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ**» في غاية الاختصار، ونهاية الإيجاز.

٨ ـ وفيه استحبابُ كتابة (أمَّا بعد) في الكتب، والرسائل، وسائر الخطب والمقالات العلمية، كما هو المعتادُ عند أهل العلم.

٩ ـ وفيه أنَّ الإنسان يتحمَّل وزْر أتباعه، إذا كان سبباً لضلالهم، أو أنه مَنَع وصول الهداية إليهم. لقوله ﷺ: (**فإنْ تولَّيتَ فإنَّ عليك إثم الأريسيين**) أي الأتباع من المزارعين».

١٠ ـ وفيه شناعةُ وقباحَةُ الكذب، عند كلّ أمة، وفي كلّ دين، ولذلك قال هرقل: «**ما كان محمد ليَدَع الكذبَ على الناس، ويكذب على الله**»؟!

١١ ـ وفيه أنَّ حب الرِّئاسة والزعامة، يمنع الإنسان عن الإيمان والهداية، لذلك

امتنع (هرقل) عن الدخول في الإسلام، ضنًا بالمُلْك، بعد أن أيقن بصدق رسالة محمد ﷺ.

١٢ ـ وفيه أنَّ الدعوة إلى الإسلام، واجب المسلمين، ملوكاً وعامَّةً، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ . . .﴾ [يوسف: ١٠٨].

تنبيهٌ هام لطيف

أرسلَ رسولُ اللَّه ﷺ إلى عظماء وملوك العالم كُتُباً، يدعوهم فيها إلى الإسلام، منهم (هرقل) ملك الروم، و(كسرى) ملك الفرس، وعظيم بُصرى، وغيرهم من الملوك والعظماء، أمَّا (كسرى) فقد مزَّق كتابَ رسول اللَّه ﷺ فدعا عليه الرسول ﷺ أن يمزّقه اللَّه شرَّ ممزَّق، فقُتل بيد ولده وذهب ملكُه، وأمَّا (هرقل) فقد أيقن بصدق الرسول ﷺ، وقال في جوابه لأبي سفيان: (إنْ كان ما تقوله حقاً، فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، ولو أني أعلم أني أَخْلُص إليه لتجشَّمتُ لقاءه ـ أي تحملت أنواع المشقة والعناء للاجتماع به ـ ولو كنت عنده لغسلتُ قدميه) وهذا اعترافٌ صريحٌ منه، بأنَّ الرسول ﷺ هو نبيُّ آخر الزمان، وقد كان (هرقل) من أهل الكتاب، وهم يعرفون من كتبهم أنه سيبعث نبيٌّ يختم اللَّه به الرسالات السماوية كما أخبر تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦] ولكنَّ حبَّ المُلْكِ والزعامة، حال بينه وبين الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ.